أردوغان... والأحلام والأوهام

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

ليس هناك أسوأ من إضاعة الفرص، خصوصا عندما يكون المرء سياسيا استطاع بلوغ الموقع الأول في بلده. في النهاية، تبقى الأحلام أحلاما والأوهام أوهاما، بل تصبح الأوهام متورّمة. يحدث ذلك عندما لا يمتلك الزعيم السياسي القدرة على فهم حدود ما يستطيع عمله انطلاقا من الإمكانات الحقيقية لبلده، وليس من تصورات لا علاقة لها بالحقيقة والواقع.

هذه حال الرئيس التركي رجب طيّب أردوغان، ملك إضاعة الفرص، الذي كان في استطاعته لعب دور محوري طليعي على الصعيد الإقليمي، بدل الدخول في لعبة تدفع تركيا ثمنها غاليا.

بعدما فشل أردوغان في سوريا، من الطبيعي أن يفشل في كلّ مكان آخر، بما في ذلك في إسطنبول المدينة التي احتضنته والتي خسر فيها الانتخابات البلدية الأخيرة. من يفشل في إسطنبول لا يمكن أن يربح في ليبيا

بدتْ تركيا قبل ما يزيد على عشر سنوات مهيّأة لأن تلعب دورا إيجابيا في كلّ مجال من المجالات في المنطقة مع اقتراب تخلّصها، هذه السنة، من معاهدات واتفاقات فرضت عليها قيودا في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمتها فيها. لكنّ أردوغان فضّل على ذلك أن تتحوّل تركيا مجددا إلى رجل المنطقة المريض. تماما كما حال إيران في ظلّ نظام الوليّ الفقيه الذي أسسه آية الله الخميني في العام 1979 والذي رفع شعار "تصدير الثورة"!.

لم تكن تركيا مضطرة، بعد مرور قرن على انهيار الدولة العثمانية، إلى الوصول إلى مرحلة تعود فيها إلى وضع الرجل المريض بعدما بدت في مرحلة معيّنة قادرة على أن تقدّم نموذجا يحتذى به. لكنّ أردوغان فضّل الدخول في لعبة المزايدات التي يتقنها الإخوان المسلمون، مثلما يتقنها نظام الملالي في إيران.

تحوّل أردوغان، قبل إصابته بداء العظمة، رمزا للصعود التركي في ظلّ نظام يعتمد على الوسطية بكلّ ما تعنيه الكلمة من اعتدال إسلامي تبدو المنطقة في أمسّ الحاجة إليه. لكنّ السنوات الأخيرة، جعلت منه رمزا لمشروع توسّعي آخر لا يقلّ خطورة عن المشروع الإيراني الذي ليس لديه ما يصدّره غير الخراب والبؤس... والغرائز المذهبية.

قاد هذا العقل المنحرف أردوغان إلى التدخل في ليبيا. يدعم هناك مجموعات ميليشيوية متطرّفة تصلح لكلّ شيء، باستثناء إعادة بناء دولة دمرها التناحر بين مجموعات مسلّحة. ما الذي يمكن أن يؤدي إليه إرسال سوريين للقتال في ليبيا إلى جانب ميليشيات متطرّفة موجودة حاليا في طرابلس؟ ما الذي يفيد إرسال قوات تركية إلى الأراضي الليبية؟ ما الفائدة من اتفاق مع حكومة فايز السرّاج في شأن الحدود البحرية تعترض عليه دول عدّة مطلة على البحر المتوسّط، من بينها مصر واليونان وقبرص؟

كان في استطاعة الرئيس التركي أن يجعل من بلاده قاسما مشتركا بين كلّ الدول المطلة على البحر المتوسّط، بما في ذلك الدول الأوروبية، بدل أن يصبح موضع حذر من الجميع. لكنّ المشكلة تكمن في أن الرجل يرفض الاستفادة من تجارب الماضي القريب، بما في ذلك تجارب الداخل التركي حيث انفضّ عنه كلّ الذين يمتلكون حدّا أدنى من المنطق من رفاقه في حزب العدالة والتنمية. على رأس هؤلاء عبدالله غول وأحمد داود أوغلو.

على سبيل المثال وليس الحصر. ما الذي جناه أردوغان في العام 2010 من خطبه الحماسية عن فكّ الحصار على غزّة غير الرضوخ لما تطالب به إسرائيل التي تنفّذ منذ ما يزيد على عشر سنوات حصارا محكما على القطاع.

هبّ أردوغان لمساعدة حركة "حماس"، التي هي جزء لا يتجزّأ من تنظيم الإخوان المسلمين، والتي تواطأت مع إسرائيل من أجل بقاء الحصار. لم يستوعب الرجل أنّ "حماس" هي المستفيد الأوّل من الحصار الإسرائيلي، نظرا إلى أنّه يضع أهل غزّة المساكين تحت رحمتها من جهة، وتحت ما تسمح إسرائيل بإدخاله إليهم من جهة أخرى.

أرسل أردوغان وقتذاك سفنا عدّة لفكّ الحصار عن غزّة. تصدت لهم إسرائيل. قتلت أتراكا كانوا على إحدى تلك السفن. في نهاية المطاف بقي الحصار وسعى الرئيس التركي إلى إصلاح العلاقات مع الدولة العبرية.

لم يفوّت أردوغان فخّا إلّا وسقط فيه. كان في استطاعته لعب دور المنقذ في سوريا، فإذا به يحوّل تركيا إلى مشكلة سورية. لابدّ من الاعتراف بأن تركيا آوت آلاف السوريين الذين هجّرهم نظام يشنّ حربا على شعبه. لكن التردّد التركي الذي رافقه كلام كبير، لم يجد ترجمة له على أرض الواقع، جعل تركيا بمثابة بيدق تتلاعب به إيران وروسيا، بدل أن تكون لها سياسة واضحة بصفة كونها الدولة الأقرب إلى السوريين وإلى أهل حلب وإدلب بالتحديد. كانت النتيجة أن تركيا صارت جزءا من الأزمة السورية بكل تعقيداتها وامتداداتها، بما في ذلك الجانب الكردي منها، بعدما كانت في مرحلة معيّنة مدخلا إلى حلّ سياسي. حلّ يتوج بالانتهاء من نظام قمعي أقلّوي صار عمره نصف قرن يحتقر السوريين ويذلّهم يوميا.

بعدما فشل أردوغان في سوريا، من الطبيعي أن يفشل في كلّ مكان آخر، بما في ذلك في إسطنبول المدينة التي احتضنته والتي خسر فيها الانتخابات البلدية الأخيرة. من يفشل في إسطنبول لا يمكن أن يربح في ليبيا. كلّ ما فعله أردوغان أنّه فعل كلّ ما يمكنه أن يزيد الأزمة الليبية تعقيدا. الأكيد أن هناك أخطاء كبيرة ارتكبها قائد الجيش الوطني الليبي خليفة حفتر. لكنّ الأكيد أيضا أن تركيا التي تمارس سياسة مبنية على أحلام كبيرة من نوع استعادة مجد الدولة العثمانية تواجه مشكلة كبيرة من النوع الذي تواجهه إيران. تختزل هذه المشكلة بأن لا مكان لسياسة توسعية تقوم على اقتصاد ضعيف من جهة، وعلى ابتزاز أوروبا والولايات المتحدة من جهة أخرى. هناك ابتزاز لأوروبا عن طريق إغراقها باللاجئين السوريين وهناك ابتزاز لأميركا عن طريق شراء أسلحة روسية. حسنا اشترت تركيا منظومة "أس400-" لصواريخ مضادة للطائرات. ما نتيجة ذلك؟ هل صارت حليفا من الندّ للندّ لروسيا... أم صارت أداة صالحة للاستخدام روسيا وإيرانيا؟

كان في استطاعة رجب طيّب أردوغان دخول لعبة الاستفادة من حقول الغاز في البحر المتوسط ونقل تركيا إلى مكان آخر، إلى مصاف الدول التي تنتمي إلى القرن الواحد والعشرين. فضّل البقاء في أسر عقد الماضي من دون أن يسأل نفسه ولو مرّة واحدة لماذا تراجع الاقتصاد التركي وهربت الرساميل من البلد؟

مثل هذا السؤال الذي يفترض بأردوغان أن يطرحه على نفسه يحتاج إلى شجاعة. لا يمتلك السياسيون الذين حولوا نفسهم أسرى لفكر الإخوان المسلمين، الذين لديهم شبق لا حدود له إلى السلطة، مثل هذه الشجاعة. هؤلاء لا يفكرون سوى بأنفسهم بدل أن يفكروا في مستقبل بلدهم لا أكثر ولا أقلّ.

الحرب بدأت ولن ينفع الغباء الإيراني

فاروق يوسف
كاتب عراقي

العراقيون خائفون. "سيكون العراق ساحة تصفيات" جملة صار يرددها العراقيون وهي أشبه بالمزحة. فمتى لم يكن العراق كذلك؟

لقد احتله الأميركان ولم يكونوا في حالة صلح مع الإيرانيين، غير أنهم استعانوا بهم وهو ما يقوله الإيرانيون بفخر كما لو أنهم حرروا العراق. بعد ذلك اتضح أن الاحتلال الأميركي كان جسرا عبر عليه الإيرانيون ليصلوا إلى العراق ويكونوا سادته الذين يخططون أن تكون بغداد عاصمتهم الأبدية.

لم يختلف الإيرانيون والأميركان على شيء في ما يتعلق بالعراق. لقد تقاسموا النفوذ والثروات ولم يبق أمامهم سوى مستقبله الغامض.

وحين فتح جيل عراقي جديد عينه على الكارثة أدرك أن المكان الذي يعيش فيه لم يعد صالحا للعيش إلا بعد تأثيثه من جديد. ولكنها فكرة ليست سهلة المنال. عليك أن تقتلع كل شيء لتبني من جديد من أجل أن يكون ذلك المكان صالحا لكي يُسمّى وطنا. فالوطن ليس بقعة الأرض وحدها بل هو الإنسان أولا، بصفاء وبراءة سريرته.

ولا أبالغ إذا ما قلت إن كل عمليات التخريب الثقافي التي قام بها الأميركان والإيرانيون مجتمعين من أجل تدمير النزعة المدنية في المجتمع العراقي انتهت إلى الفشل حين خرج الشباب إلى الساحات، يجمعهم نداء وحدة الوطن. ولم تكن وحدة ترابه هي المقصودة هذه المرة، بل وحدة مجتمعه.

وهو ما يعني إسقاط نظام الطوائف الذي أقامه الأميركان ورعاه الإيرانيون، كونه الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من السيطرة عليه متعادلين. أما وقد أسقط العراقيون كل المعادلات القديمة التي كانت عبارة عن صفقة بين الطرفين، فقد اضطربت العلاقة الهشة بينهما. لقد انتهت الهدنة التي كان العراق ساحتها ودُقت طبول الحرب.

الطرفان خائفان على مصالحهما في العراق، لكن كل واحد منهما يرعى تلك المصالح بطريقته الخاصة. ولأن النظام الإيراني كان مطمئنا أكثر من الولايات المتحدة إلى أن العراق صار من حصته، فقد ارتكب بسبب استعلائه على الواقع الخطأ الذي يمكن أن يجره إلى الحرب.

إلى وقت قريب كانت إيران حريصة على ألّا تتورط في حرب، تكون شبيهة بحرب العراق عام 1991. ستخرج منها خاسرة ومدمرة. هذا صحيح. ولكنها قد تؤدي إلى سقوط النظام.

لذلك كانت حذرة وهي توجه ميليشياتها بالمطالبة برحيل القوات الأميركية من الأراضي العراقية ليخلو لها الجو ولتتمكن من إنهاء الانتفاضة الشبابية وفق وصفتها المعروفة. القمع السريع والقتل المبالغ فيه.

غير أن تلك الميليشيات وقعت في المحظور. وكان على الرئيس دونالد ترامب أن ينفذ وعده في هذا الوقت الحرج. لقد كان الثأر الأميركي مطلبا شعبيا أميركيا، لا يمكن لرئيس دولة عظمى أن يغض الطرف عنه.

الغباء هذه المرة كان إيرانيا ولأول مرة تتصرف الولايات المتحدة بذكاء استثنائي في العراق منذ عام 2003.

سيكون من الصعب إرجاع عقارب الساعة. فما حدث لا يمكن التراجع عنه بالنسبة للولايات المتحدة، أما الخوف من الثأر الإيراني فهو لا معنى له.

من السذاجة اعتبار اغتيال قاسم سليماني وأبومهدي المهندس ردا مباشرا على الاعتداء على السفارة الأميركية ببغداد. كانت الرسالة الأميركية واضحة. لا مكان لكم في العراق الذي ينادي شبابه برحيلكم وانتهاء هيمنتكم أيها الإيرانيون. وكما أرى فإن الولايات المتحدة التي لم تعلن تأييدها للاحتجاجات في بغداد والمدن العراقية الأخرى قالت كلمتها أخيرا.

ستراقب الإدارة الأميركية ما يجري من تحولات على مستوى القيادة العراقية بعد الضربة الموجعة. غير أنها لن تتراجع عن احتواء العراق في ظل تحولات المزاج الشعبي المعادي لإيران.

مات رجل إيران القوي.. فماذا بعد ذلك؟

علي قاسم
كاتب سوري
مقيم في تونس

اكتفت الولايات المتحدة بتوجيه صفعة لإيران، بعد انتظار طويل دام 40 عاما. والسؤال الأكثر أهمية الآن ليس هو لماذا قامت بذلك، بل لماذا انتظرت كل ذلك الوقت لتقوم بذلك؟

منذ العام الأول للحدث الذي مهد الطريق لعودة آية الله الخميني إلى إيران، الحدث الذي مضى عليه أربعون عاما وأطلق عليه اسم "الثورة الإيرانية"، وحكام طهران يبذلون كل ما في وسعهم لزرع الفتن واختلاق المشاكل في المنطقة، ويظهرون التحدي للولايات المتحدة.

أول مظاهر التحدي كان عام 1979، حين تم احتجاز رهائن أميركيين داخل السفارة الأميركية في طهران، لمدة 444 يوما، اكتفت خلالها واشنطن بالدبلوماسية وبلعبة الانتظار. الأمر الذي فسّر من قبل الجميع بحرص واشنطن على عدم تعريض سلامة الرهائن للخطر، وفسره حكام طهران بخوف الإدارة الأميركية من الإيرانيين، خاصة في ظل تعاطف كبير مع الثورة الإسلامية، في ذلك الحين، حتى قوى اليسار أبدت تعاطفا مع آيات الله، لتخسر بذلك مصداقيتها، وتتعرض للتفكك والانحسار.

وعندما ضربت إيران السفارة الأميركية في بيروت بعد أربعة أعوام، أبريل 1983، اختارت واشنطن عدم الرد أيضا، الأمر الذي فتح شهية حكام طهران للمزيد، فجاءت ضربة مقر المارينز، بعد أربعة أشهر، من نفس العام.

اختارت الإدارات الأميركية المتعاقبة الصمت أمام تجاوزات إيران، وبدا وكأنما واشنطن قد منحت طهران ضوءا أخضر لفعل ما تريد في لبنان، وسوريا والعراق واليمن. ووصلت التجاوزات إلى حد قامت معه طهران بأعمال قرصنة بحرية ضد سفن تنقل البترول، وتجرأت على ضرب منشآت نفطية حيوية في السعودية، في تهديد ليس فقط للسعودية بل للاقتصاد العالمي.

عمليات اغتيال كثيرة نفذها عملاء إيران في المنطقة، ضد مسؤولين ورجال فكر، وتحرك رجالها، وعلى قاسم سليماني، متنقلين بين عواصم عربية بحرية، يعزلون وينصبون رؤساء حكومات ووزراء وقادة جيوش، وبدا الأمر وكأنما هم حكام مفوضون لتسيير الشأن الداخلي لدول عربية أهدتها واشنطن لطهران.

الهجوم الأخير على السفارة الأميركية في بغداد، ليس هو الأسوأ على قائمة الهجمات التي خطط لها آيات الله، حتى يعتبره الكثيرون الخط الأحمر الذي تجرأ الإيرانيون على تجاوزه. إيران تجاوزت الخط الأحمر قبل ذلك الوقت بكثير. إلا أن الاختراق الأخير حدث في ظل ظروف دولية جديدة، باتت تهدد المصالح الأميركية في منطقة من أكثر مناطق العالم أهمية.

تشابكت المصالح وتعددت الأطراف المتصارعة، وكان لا بد للولايات المتحدة من أن تذكر الجميع من هو صاحب القول الفصل وسيد القطيع المتناحر؟

كل ما قيل حتى الآن يجيب على الجزء الأول من السؤال، لماذا وجهت واشنطن الضربة التي أنهت حياة رجل طهران القوي؟ ولا يقدم إجابة على الجزء الثاني من السؤال وهو، لماذا انتظرت واشنطن كل ذلك الوقت لتقوم بذلك؟

دع خصمك يوغل في الخطأ وانتظر اللحظة التي يفقد فيها المتعاطفين معه، عندها فقط انقضّ عليه. الرئيس الأميركي، دونالد ترامب، ليس حالة استثنائية في التاريخ الأميركي، لسبب بسيط هو وجود مؤسسات تسير الحكم من خلف الستار، وتحرص على تنفيذ المصالح الأميركية. عندما اقتضت الضرورة، لم يتردد الرئيس الأميركي، هاري ترومان، بإصدار الأوامر لضرب اليابان بقنابل نووية، في أغسطس 1945.

الإدارة الأميركية، وليس الرئيس الذي لم يمض على وجوده في المنصب أكثر من أربعة أشهر، هو من أعطى القرار الذي أوقف الحرب العالمية الثانية.

تصفية قاسم سليماني، ليست رد فعل غاضب لرئيس أميركي يصفه العالم بالانفعالي، بل هو رد مخطط ومدروس جاء في اللحظة الصحيحة بعد أربعين عاما من الانتظار والترقب.

مات سليماني، الذي يلقبه الجميع برجل إيران القوي.. فماذا بعد ذلك؟

خياران لا ثالث لهما، مطروحان اليوم أمام حكام طهران، الاستسلام والقبول بالخسارة، وفق أحكام وشروط المنتصر. هكذا كانت الأمور تجري في السابق، وهكذا سيكون الحال مع إيران اليوم.

هناك اتفاق مخطط له سيرى النور قريبا، يعيد ترتيب الأمور وفق مصالح الأطراف الأقوى، وحتما ليست إيران من بينها. فهي الآن بمثابة رجل المنطقة المريض؛ لأول مرة ترتفع الأصوات ضد "الاحتلال" الإيراني في دول المنطقة. هذا عن الخيار الأول، ماذا عن الخيار الثاني؟

إن لم يتعلم حكام طهران من دروس الماضي، خاصة من اليابان وألمانيا اللتين قبلتا الخسارة والشروط التي فرضتها عليهما الأطراف المنتصرة، وقبل ذلك كله من تجربة الدولة العثمانية، التي اضطرت للتنازل عن ميراثها، لن يكون أمامهم من خيار سوى الانتحار.

الإدارة الأميركية تنتظر ردة الفعل التي قد تصدر عن طهران، ولن تتردد في مساعدتها على الانتحار إن اقتضت الضرورة. الأهداف التي يراد ضربها محددة بدقة على الخرائط ولن تقتصر هذه المرة على بعض الأشخاص والأماكن.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk